خطبة صلاة الجمعة 18/ 1/ 2019 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(لِمَ لا يستجيب الله دعائي؟)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: 13].

وقال سبحانه: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ﴾ [يونس: 83]، قال ابن كثير: هم الشباب.

أخرج الحاكم والبيهقي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**اغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك**».

أيها الإخوة:

نحن في الخطبة التاسعة عشرة من سلسلة (هموم الشباب)، تحدثت الخُطبُ السابقة: لماذا هذه السلسلة، وكيف أترك المعصية، كيف أرضي أبوي، كيف أجد عملاً مناسباً، كيف لي بالزواج، ماذا أقرأ لأفهم ديني، وكيف أجمع بين الدنيا والآخرة، وكيف أجمع بين الهزل والجِد، وكيف أختار تخصصي الجامعي، وكيف يلين قلبي، وكيف أخدم بلدي، وكيف أسيطر على الغضب، وكيف أنجو من الفتن، وكيف أكون محبوباً، وكيف أنظم وقتي، وكيف أكتشف مواهبي وأنميها، وكيف أصير داعيةً إلى الإسلام، وكيف أختار صاحبي؟

عنوان خطبة اليوم: **لِمَ لا يستجيب الله دعائي؟**

أيها الإخوة:

يدعو شابٌّ ربَّه بالغنى، ويدعو آخرُ بالزواج، وثالثٌ بترك الذنوب، ورابعٌ برضا الوالدين، وخامسٌ بشراء منزل أو متجر، ويقرؤون في القرآن الكريم: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: 60] ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: 186]، وفي الحديث النبوي الشريف: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «**إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَيَسْتَحِي أَنْ يَبْسُطَ الْعَبْدُ إِلَيْهِ يَدَيْهِ يَسْأَلُهُ خَيْرًا فَيَرُدَّهُمَا خَائِبَتَيْنِ**» [مسند أحمد].

ولكن يتفاجأ أحدُهم أنّه لا يزال بعيداً عن الغنى! وأنّ الآخرَ لما يتزوج بعد! وأن الثالثَ يكرّر الذنبَ الذي يؤلمه! وقد خاصم الرابعَ والداه! ولم يشترِ خامسُهم منزلاً ولا متجراً حتى اليوم! فيصيبُ أحدَهم الهمُّ ويسأل لِمَ لا يستجيب الله دعائي؟!

وللجواب على هذا السؤال أقول:

عَنْوَنَ "ابن الجوزي" في كتابه النافع "صيد الخاطر" بحثاً بقوله: (لا تجزع إذا تأخرت الإجابة)، فيه إجابة على ذا السؤال، وسأختصر لكم ما ورد تحت هذا العنوان، متمماً فوائدَه، وشارحاً غامضَه.

يقول ابن الجوزي: (رأيت من البلاء أنّ المؤمن يدعو فلا يُجاب، فيكرر الدعاء وتطول المدة، ولا يرى أثراً للإجابة! فينبغي له أن يعلم أنّ هذا من البلاء الذي يحتاج إلى الصبر، وما يعرض للنفس من الوسواس في تأخير الجواب مرض يحتاج إلى طب، ولقد عرض لي من هذا الجنس؛ فإنه نزلتْ بي نازلةٌ فدعوتُ فلم أرَ الإجابة، فأخذ إبليس يجول في حلبات كيده؛ فتارة يقول: الكلام واسع، والبخل معدوم، فما فائدة تأخير الجواب؟! وتارة يقول: إذا كان الله قريباً مجيباً فلمَ لا يجيب دعاك ولا يسمع نداك؟!

فقلت له: اِخسأ يا لعين! فما أحتاج إلى تقاضي، ولا أرضاك وكيلاً.

ثم عُدْتُ إلى نفسي فقلتُ: إياكِ ومساكنةَ وسوستِه! فإنه لو لم يكن في تأخير الإجابة إلا أن يبلوك الله في محاربة هذا العدو لكفى في الحكمة.

ثم قلت لنفسي: إياكِ والجزعَ إذا تأخرت الإجابة! فإن تأخرَها لأسباب:

أولها: قد ثبتَ بالبرهان أنّ الله مالكٌ، وللمالك التصرفُ بالمنع والعطاء، فلا وجه للاعتراض عليه.

والثاني: أنه قد ثبتتْ حكمةُ المالك جل جلاله بالأدلة القاطعة، فربما رأيتِ الشيء مصلحةً والحكمةُ لا تقتضيه! فتأخرت الإجابة حتى يوافق الشيءُ المطلوبُ الحكمةَ! وقد يخفى وجه الحكمة فيما يفعله الطبيب من أشياء تؤذي في الظاهر؛ يقْصِد بها المصلحة، فلعل هذا من ذاك!.

والثالث: أنه قد يكون التأخير مصلحةً والاستعجالُ مضرةً، يشهد لذلك قوله تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 216].

الرابع: أنه قد يكون امتناع الإجابة لآفةٍ فيكِ! فربما يكون في مأكولِكِ شبهةٌ! أو قلبُك وقتَ الدعاء في غفلة! أو تُزَادُ عقوبتُك في منعِ حاجتِك لذنبٍ ما صدقتِ في التوبة منه!.

روي عن بعض الصالحين: أنّه نزل بعضُ الأعاجم في داره يريد غصبها منه، فجاء صاحب الدار فوقف بباب الدار، وأمر بعض أصحابه أن يدخل الدار ويقلع طيناً جديداً؛ كان الرجل الصالح قد طيّنه، فدخل فقلع الطين، فقام الأعجمي وخرج، فسُئل الرجل الصالح عن ذلك فقال: (هذا الطين من وجه شبهة، فلما زالت الشبهة زال صاحبها!.

وقال الليث: رأى موسى عليه الصلاة والسلام رجلاً رافعاً يديه وهو يسأل الله مجتهداً؛ فقال موسى عليه السلام: أي رب! عبدك دعاك حتى رحمتَه وأنت أرحم الراحمين، فما صنعت في حاجته؟ فقال: يا موسى! لو رفع يديه حتى ينقطع ما نظرت في حاجته حتى ينظر في حقي!.

والخامس: أنه ربما كان فَقْدُ ما فقدتِيه سبباً للوقوف على الباب واللجأِ إلى الله! وربما كان حصولُه سبباً للاشتغال به عن المسؤول، وإنما البلاء المحض ما يشغلكِ عنه، فأما ما يقيمكِ بين يديه ففيه كمالُك.

حُكي عن يحيى البكاء أنه دعا ربه: يا رب! كم أدعوك ولا تجيبني؟ فكأنه سمع: يا يحيى! إنّي أُحبّ أن أسمع صوتك!.

وإذا تدبرتِ –يا نفس– هذه الأشياء، تشاغلتِ بما هو أنفع لك من حصول ما فاتَكِ: من رفعِ خللٍ، أو اعتذارٍ عن زللٍ، أو وقوفٍ على الباب راجيةً من رب الأرباب).

أيها الشاب:

دعا موسى عليه السلام على فرعون، وأمّن هارون على دعائه، فأهلك الله فرعون بعد أربعين سنة، فكُنْ موسويَّ الصبر!

طلب يعقوب عليه السلام من الله ولده يوسف بعد فقده، فجمعه به بعد عشرات السنين، فكن يعقوبَ العصر!

مرض أيوب عليه السلام وسأل ربه أن يشفيه، فبرَأَ بعد أعوام طوال، فكن أيوب الدهر!

آذى أبو جهلٍ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم من أول يوم في الدعوة، فأمهله الله إلى بدر؛ فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل!

ومع تأخّر الإجابة لم يجزع الأنبياء، ولم يضجر الأولياء، بل زادهم إيماناً ورضى، فظهر معنى قولِه تعالى: ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [المائدة: 119].

قال ابن عطاء الله الاسكندري: (لا يكُنْ تَأَخُّرُ أَمَد العَطاء مَعَ الإلْحاح في الدّعَاءِ موجبَاً ليأسِك، فهو ضَمِنَ لَكَ الإجابَةَ فيما يختارُهُ لكَ لا فيما تختاره لنَفْسكَ، وفي الوقْتِ الذي يريدُ لا في الوقْت الذي تُريدُ).

وبعد أيها الشباب:

أكثروا من السؤال والدعاء بين يدي الله تعالى وأيقنوا أنه مجيبُ دعاءكم على أن تراعوا أسباب إجابة الدعاء:

وأولها: ترك المحرمات: «يَا سَعْدُ أَطِبْ مَطْعَمَكَ تَكُنْ مُسْتَجَابَ الدَّعْوَةِ» [الطبراني في الأوسط] «ذكر رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ، يَا رَبِّ، يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟» [مسلم].

وثانيها: الاجتهاد في الطاعات: وحسبكم دليلاً على ذلك حديث الثلاثة الذين أطبقت عليهم الصخرة فدعوا الله بصالح أعمالهم فنجاهم [مُتَّفَقٌ عليهِ]، قال وهب ابن منبه: مثَلُ الذي يدعو بغير عمل كمثل الذي يرمي بغير وتر!.

وثالثها: الانكسار على باب رب الأرض والسموات: فقد خرَّج الطبراني وغيره من حديث سعد بن خارجة: أنَّ قوماً شكوا إلى النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم قُحُوطَ المطر، فقال: «اجثُوا على الرُّكَب، وقولوا: يا ربِّ يا ربّ» ورفع السَّبَّابة إلى السَّماء، فسُقُوا حتى أحبُّوا أنْ يُكشَفَ عنهم.

والرابع: الإلحاح وتكرار الدعوات: قال يزيد الرَّقاشي عن أنس: "ما مِنْ عبدٍ يقول: يا ربِّ يا ربِّ يا ربِّ، إلا قال له ربُّه: لبيك لبيك".

عن أبي سعيد رضي الله عنه، أنَّ النَّبي صلى الله عليه وسلم قال: «**مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَدْعُو بِدَعْوَةٍ لَيْسَ فِيهَا إِثْمٌ وَلَا قَطِيعَةُ رَحِمٍ إِلَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ بِهَا إِحْدَى ثَلَاثٍ: إِمَّا أَنْ تُعَجَّلَ لَهُ دَعْوَتُهُ، وَإِمَّا أَنْ يَدَّخِرَهَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ، وَإِمَّا أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُ مِنْ السُّوءِ مِثْلَهَا**»، قَالُوا: إِذًا نُكْثِرُ، قَالَ: «**اللَّهُ أَكْثَرُ**». [مسند أحمد].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**لاَ يَزَالُ يُسْتَجَابُ لِلْعَبْدِ مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ، أَوْ قَطِيعَةِ رَحِمٍ، مَا لَمْ يَسْتَعْجِلْ**»، قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ: مَا الِاسْتِعْجَالُ؟ قَالَ: «**يَقُولُ: قَدْ دَعَوْتُ وَقَدْ دَعَوْتُ فَلَمْ أَرَ يَسْتَجِيبُ لِي، فَيَسْتَحْسِرُ عِنْدَ ذَلِكَ وَيَدَعُ الدُّعَاءَ**»، [مسلم] (يستحسر: يعني ينقطع عن الدعاء، ويستنكف).

اللهم إنا نسألُك حبَّك، وحبَّ من يحبُّك، وحب عمل صالح يقرّبُنا إلى حبك.

اللهم اجعلنا هادين مَهْدِيّين، غير ضالين ولا مُضلين.

اللهم أعنّا على دوام ذكرك وشكرك وحسن عبادتك ولا تجعلنا من الغافلين.

والحمد لله رب العالمين